

علاقة السياسة بالسعادة عند أبي نصر الفارابي
between politics and happiness according to Abu Nasr Al-Farabi

لحرش أحلام ، أ.د. فريدة أولمو

¹ جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)،

Ahlam.lahrech@univ-alger2.dz

² جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر).

farida.oulmou@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/09/30 تاريخ القبول: 2025/12/03 تاريخ النشر: 2026/01/23

ملخص:

تعتبر السعادة من أهم المطالب التي يسعى الإنسان لبلوغها، ومن الفلاسفة الذين اهتموا بالتنظير لها نجد الفيلسوف أبو نصر الفارابي، والذي حاول تحديد مفهومها من خلال ربطها بمصطلح الخير، بل وجعلها قمة الخيرات، وهي حالة روحية تصلها النفس بعد التدرج من سعادة الدنيا إلى السعادة القصوى؛ حيث الدار الآخرة، أما التعاسة فقد ربطها بممارسة الشر، الناتج عن الجهل، والرئيس أو الفيلسوف الحكيم هو أحسن الأشخاص تقديرا للسعادة وسبيلها، ولفهمه للغة وفكر العامة ولهذا يلجأ إلى سن التشريعات التي تركز السعادة لرعيته في إطار المدينة الفاضلة، مُراعيا بذلك الفروق الفردية بينهم، واحتياجاتهم، كي تتحقق العدالة، ويتجنبون العيش في الشقاء. ولا يتحقق له ذلك إلا بمعرفة الحكمة وممارستها، ونشرها من خلال التعليم في المجتمع الفاضل. ولأن الدولة تدار بالسياسة لابد للرئيس الفيلسوف أن يوفر كل الشروط التي تسعد رعيته. كلمات مفتاحية: السعادة، الشقاء، الحكمة، السياسة، المدينة الفاضلة، الرئيس، الرعية.

Abstract:

Happiness is an innate human demand and an effort to achieve tranquility, contentment, and joy. It is also an intellectual and philosophical demand that Islamic philosophical thought took care of in order to achieve earthly and eternal comfort.

Among the philosophers who paid great attention to the pursuit of happiness, we find Al-Farabi, who founded it according to the principle of goodness and the necessity of coexistence in his virtuous city.

Al-Farabi considered that evil is the basis of unhappiness and that the philosopher is the most knowledgeable about ways to achieve happiness and spread it in society, achieve social justice in this world, and achieve eternal and spiritual happiness.

This, in brief, is the subject of our humble article and research

Keywords: Happiness, misery, wisdom, politics, utopia, president, parish.

*أحلام لحرش

1. مقدمة

مقدمة:

من منا لم يسمع بمصطلح السعادة؟ أو لم يستخدمه؟ فهو من أكثر المصطلحات استعمالاً، وبحثاً، ولن نبالغ إذا اعتبرنا أن الإنسان بطبعه يترفع إلى السعادة، ويطلب تحقيقها في كل مراحل حياته، بل إن صعوبة بلوغها، والظروف التي تحول أمام ذلك، هي السبب الرئيسي في انتشار موجة الكآبة واليأس والتي قد تؤدي أحياناً للتخلي عن الحياة، معنوياً، أو حتى مادياً، جملة، وتفصيلاً.

وبالرغم من اقتران مصطلح السعادة بوجودنا إلا أن هناك مفارقة؛ تتمثل في صعوبة الإحاطة بتعريف شامل، ودقيق له، بالرغم من وجود نقاش وجدل بين المفكرين والفلاسفة حوله عبر التاريخ، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى رأي نهائي حول ماهيته، نظراً لصعوبة الموضوع وتعقده، واختلاف وجهات النظر حوله، وهذا الأمر شكل لدينا حافزاً قوياً دفعنا لمحاولة مناقشته، وكشف غموضه، وتحديد علاقته بالسياسة، بالاستعانة بفيلسوف مهم أفاض في دراسة السعادة في الفكر الإسلامي، ونقصد الفيلسوف والمعلم الثاني: أبو نصر الفارابي (260 هـ/874 م، ت 339 هـ/950 م)*، والذي ذكر هذا الموضوع من خلال ما وصل إلينا من كتبه ومن أهمها كتاب: تحصيل السعادة، إضافة لكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، وحاول تبين علاقة السعادة بالسياسة، باعتبارها أداة تُنظم حياة الناس. ولا نبالغ إذا قلنا أن مواقفه في السياسة والأخلاق وتقسيماته للفلسفة، تتقاطع كلها في نقطة واحدة وهي: مفهوم السعادة، وكيفية تحقيقها، ولذلك سنحاول تبين مواقفه، والإجابة على الأسئلة الآتية: ما هو مفهوم السعادة عند الفارابي؟ وما هو السبيل لتحقيقها؟ وما علاقة السياسة بالسعادة في نظر الفارابي؟ هل هناك علاقة بين سعادة رئيس المدينة الفاضلة وسعادة الرعية؟

مفهوم السعادة عند الفارابي:

إذا أردنا معرفة معنى السعادة عند المعلم الثاني فإننا نجده قد وصفها بأنها: "الخير على الإطلاق، وكل ما ينفع في أن تُبلغ به السعادة وتُنال به فهو أيضاً خير لا لأجل ذاته لكن لأجل نفعه في السعادة، وكل ما عاق عن السعادة

* - أبو نصر الفارابي: هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابي التركي. تنقلت به الأسفار حتى وصل إلى بغداد، فشرع في اللسان العربي وتعلمه واتقنه غاية الاتقان، ثم اشتغل بعلوم الحكمة. ثم سافر إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، وسلطانها يومئذ سيف الدولة بن حمدان فأحسن إليه. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، ج 5، دار صادر، بيروت، (د س)، ص 153-155.

بوجه ما فهو الشر على الإطلاق"¹، فكل ما يحقق لنا الخير يُعتبر سعادة، وكل ما يحول أمام بلوغنا السعادة هو شر لجلبه للتعاسة. ويضيف الفارابي موضحاً: "والخير النافع في بلوغ السعادة قد يكون شيئاً مما هو موجود بالطبع، وقد يكون ذلك بإرادة، والشر الذي يعوق عن السعادة قد يكون شيئاً مما يوجد بالطبع وقد يكون بإرادة"². فالخيرات مراتب وأعلاها الخير الأسى وهو السعادة، ولا سعادة في قلب شربل الشقاء هو قسمته، أما الإنسان الخير فيتدرج في مدارج الخير حتى يرتقي ويبلغ السعادة القصوى. وبالتالي تصبح السعادة أكثر الخيرات إثارة. وهنا يربط الفارابي السعادة بمصطلح الخير، لأن هذا المصطلح قريب من فكر العامة، ومن ممارساتهم اليومية، بحيث تنقسم الأفعال في نظره إلى أفعال خيرة بذاتها أي بطبيعتها، مثل الإحسان للضعفاء، وهناك أفعال يظهر منها أنها شر ولكنها تتخذ صفة الخيرية من نيتها ومقصدتها ونتائجها كالتقصص، الذي ظاهره شر ولكن غايته السعادة، والسعيد هو شخص يملك قوة ذهنية، تمكنه من تمييز الأفعال وما وراءها ولذلك لم ينخدع بالمظاهر. وبعبارة أخرى الخير قسمان: خير مطلق، أو الأول أو الأسى، وخير مطلوب لذاته، أي خير بدافع الخير، والخير المطلق هو قمة الغايات، ظاهره كباطنه، وهو خير بالطبع، مستلهم من الأجسام السماوية، واتباعه يوصل إلى السعادة التامة، ولا يتحقق حتى يبلغ الإنسان الكمال الأقصى، ويهذب نفسه وعقله، وذلك بفضل المبادئ التي يفيض بها العقل الفعال.

والخير المطلوب لذاته هو خير بالإرادة، وهو خير جزئي، ومتعدد، يُطلب لا كوسيلة، وقد يبدو من ظاهره الشر، ولكن حكمنا عليه يختلف بحسب النية من وراءه، وبحسب نتيجته، وهو يؤدي لبلوغ الخير المطلق.

وفي كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة يضيف الفارابي مفهوماً آخر للسعادة. يحمل طابع الزهد، والتقشف، وذلك في قوله عن السعادة: "هي أن تصير نفس الإنسان من الكمال في الوجود إلى حيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام، وفي جملتها المفارقة للمواد، وأن تبقى على تلك الحال دائماً أبداً"³، بمعنى أن النفس تجد طعم السعادة القصوى حين تنفصل عن تأثير البدن فيها، أي حين تنتقل من حياة الدنيا، إلى الحياة الأبدية، فالسعادة هي حالة روحية وليست مادية، وذلك لضمان استمرارها مع الزمن النفسي، مادام أن الشهوات تنقطع، وتؤثر بعد ذلك الألم والحزن، وهنا نلاحظ وجود مرجعيتين تؤثران في فكر الفارابي أولهما أثر الدين الإسلامي الذي يُعلي من شأن النفس، والزهد، والتصوف، وثانيهما أثر النزعة الأفلاطونية الثنائية، والتي تعتبر أن النفس هي الجوهر الكامل والخالد، أما الجسد فهو سجن وخادم حقير للنفس، باعتباره محلاً للشهوة، والضعف، وإذا تولى زمامها حال دونها ودون بلوغها المعرفة، وسيجرها للانغماس في اللذات، والبعد عن الخيرات، فالمتأمل في حقيقة الموضوع يدرك أن الملذات مادة وهي تثقل النفس وتبطل انطلاقها نحو الكمال، ولذلك من يتبع الشهوات واللذات يتعثر في سلوك طريق الخيرات، مثل ترك الصدقة خشية الفقر والجوع، ولذلك من يدرك السعادة

¹ - أبو نصر محمد الفارابي: السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تق: فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط1، 1964، ص 72.

² - أبو نصر الفارابي: المصدر نفسه، ص 72-73.

³ - الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، دوتج: حسن مجيد العبيدي، دار الأمان، لبنان، ط 1، 2014م، ص 277.

هو العقل، وهو الذي يدل على طريقها، وليس الهوى. والسعادة لذة، ولكنها عقلية، تُترجم على شكل راحة بال، ورضى، ورفي عن كل ما من شأنه أن يحط بقيمة الإنسان باعتباره سيداً للمخلوقات.

والسعادة هي سعادة المعرفة وهي حالة مكتسبة لمن يسعى لها، ويوفر شروطها، وليست قدراً قد يُكتب لنا أو حظاً نُحرم منه، فهي فعل مشروط بممارسة التعقل، والاحتكام للمنطق، للتمييز بين الصحيح، والخطأ، والتزام العدل في الأمور كلها، واعتبار أن الرضوخ لهيمنة الجسد وغرائزه، انحراف عن طريق الخير، والفضيلة، مما يفوت علينا السعادة، وهي عبارة عن نداء الفطرة فينا، وغاية نتشوق إلى بلوغها، ولذلك نتحمل مشاق سلوك الطريق المستقيم، كي يوصلنا هذا الشوق لمعرفة الله تعالى والالتزام بأوامره، حتى نحقق رضاه، وبذلك نبلغ السعادة. وهي رحلة بدايتها في الدنيا ونهايتها في الآخرة، ومعنى ذلك أن هناك مراحل أو درجات للسعادة عند الفارابي؛ قصوى، ودنيا، وهو يقول عن السعادة القصوى: "ليست تكون في هذه الحياة بل في الحياة الآخرة التي تكون بعد هذه وهي ما يسمى السعادة القصوى"¹. فالسعادة رحلة، وتظهر في أن التعيس في الدنيا، تعيس في الآخرة، فهي المرحلة الآتية، وهي المصير ولذا لا يوجد بعدها تغير في الأحوال، أو نزول في المراتب، ولأن أنفسنا غير مهيئة لاستقبال السعادة القصوى في الحياة الدنيا، ولذلك يكون محلها الآخرة، حيث الخلود الأبدي، وكجزء لعمل الخير في الدنيا، وتكريماً لتعب النفس وتضحياتها بلذات الدنيا وترفعها عنها، ولتغليها سلطة العقل، وممارستها للتأمل، كما أن النفس تهيأ في الدنيا باستقبال السعادة الدنيوية على قدرها كي تتمكن من تحمل حالة السعادة الآخروية على قدر حياة الآخرة، وكأنها مرحلة تهيئة وتجهيز تتأسس على الترفع البدني، ثم العقلي والنفسي.

ويقصد بالتنزه عن البدن: "مفارقة النفس هو ألا تحتاج في قوامها إلى أن يكون البدن مادة لها... وأن لا تحتاج إلى أن تستعين في شيء من أفعالها بفعل قوة في جسم أصلاً... فإنها إذا صارت غير محتاجة في شيء من أفعالها، لا إلى الحس ولا إلى التخيل، فقد صارت إلى الحياة الأخيرة. وحينئذ يكون تصوره لذات المبدأ الأول أكمل إذ كان إنما يهجم العقل على ذاته من غير حاجة به إلى أن يتصوره بمناسبة أو مثال، وليس يصل إلى هذه الحال إلا بالحاجة المتقدمة التي كانت له إلى أن يستعين بالقوى الجسمانية وبأفعالها في أن يفعل أفعالها وهذه هي الحياة الأخيرة التي يرى فيها الإنسان ربه لا يضام في رؤيته"²، وترتبط السعادة بالحكمة، والتعقل فلا سعادة لأحمق، والحكيم هو الذي يُدرك أن الغاية القصوى التي لأجلها كَوّن الإنسان هي السعادة، فهو لم يوجد في الحياة الدنيا من أجل أن يكون تعيساً، وإذا لم يدلّه عقله على سبيل السعادة فلا خير فيه، ومن تمام عقل المرء كذلك أن يدلّه على خالق السعادة الذي منه استفاد سائر الموجودات الفضيلة والكمال، وعلى رأسها الإنسان، والتعقل هو الذي يوقف على ما ينبغي أن يُفعل حتى تحصل السعادة. وبالتالي يتحقق كمال الإنسان باجتماع الحكمة مع التعقل. وشيمة الحكيم الحقيقي حسب الفارابي الزهد والتقشف في الحياة، متبعا في ذلك سنن الأنبياء، والمصلحين، وبالتالي تتجلى الفلسفة في بلوغ الكمال الإنساني، سواء كان كمال نظري أو عملي أخلاقي، وبمعرفة الحقائق نحقق الكمال الأول النظري، أي بمعرفة

¹ - الفارابي: كتاب الملة ونصوص أخرى، تح: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ط 2، 1991م، ص 52.

² - الفارابي: فصول منتزعة، تح: فوزي متري نجار، المكتبة الزاهرة، مطبعة العلامة الطباطبائي، إيران، ط 2، 1405هـ، ص 86، 87.

الفلسفة باعتبارها الحكمة الأولى، أما الكمال العملي الأخلاقي فيتحقق بخضوع كل قوى النفس للقوة الناطقة أو العاقلة.

وأخر مرتبة في سلم الكمال الأخلاقي هي السعادة، والتي لا تستطيع النفس الجاهلة بلوغها مهما حاولت، ولذلك لابد لها أن تتدرج أولاً بالإحاطة بالعلوم. ثم ثانياً بممارسة التعقل، لتصل النفس بعدها إلى الحكمة، حين تُغلب الجانب العاقل، وبالتالي تتحقق الفضيلة المفضية أخيراً إلى السعادة، ولذا نجد ارتباطاً بين الجانب الأخلاقي والجانب العلمي، أما أفعال الإنسان القبيحة، والشريرة، فهي مفضية إلى الشقاء، وناتجة عن الجهل لوجود انفصال بين العقل الهولاني، والعقل الفعال.

سبيل تحقيق السعادة:

يقول الفارابي حول سبيل تحقيق السعادة: "لما كانت السعادة إنما ننالها متى كانت لنا الأشياء الجميلة قنية، وكانت الأشياء الجميلة إنما تصير لنا قنية بصناعة الفلسفة فلازم ضرورة أن تكون الفلسفة هي التي ننال بها السعادة"¹، من خلال هذا القياس يعطينا الفارابي نتيجة مفادها: أننا إذا أردنا بلوغ السعادة لن يتأتى لنا ذلك إلا باقتناء وتملك الأشياء الجميلة، ويقصد بها الأشياء الفاضلة، والخيرة، ويتحقق ذلك باستخدام العقل، والحكمة، والتفلسف في الأشياء، لنتمكن من التمييز بين الحق والباطل، ولا نُخدع بالمظاهر، والسؤال المطروح لماذا اختار الفارابي الفلسفة بالذات لتكون شرطاً لتحقيق السعادة؟ نجد الجواب في مقولته "هذا العلم؛ هو أقدم العلوم وأكملها رئاسة، وسائر العلوم الآخر الرئيسة هي تحت رئاسة هذا العلم... إذ كانت هذه العلوم إنما تحتذي حذو ذلك العلم، وتستعمل ليكمل الغرض بذلك العلم وهو السعادة القصوى والكمال الأخير الذي يبلغه الإنسان"²، فالفلسفة هي أم العلوم، ومادام أن الغاية من تعلمها هي معرفة الله تعالى، وعبادته، فهذا هو الخير على الإطلاق، وهو ما يضمن للمفلسف الانكباب على تحصيل الحياة العقلية والعزوف عن الماديات، والارتقاء بنفسه، نتيجة تجردها من الماديات، واقبالها على الروحانيات، بمعرفة الله تعالى وعبادته. وتحقيق كمال النفس بالعلم.

وبالتالي لا سعادة للفرد بعيد عن سعادة الأمة، ولا يمكننا بلوغ السعادة إلا بتوفر شروط من أهمها: تحقيق الفضائل النظرية ونعني بها اكتساب العلوم والمعارف الحقيقية والصحيحة، النظرية مثل الفلسفة والرياضيات، ومبادئ العلوم، إضافة إلى ضرورة اكتساب الفضائل الفكرية والمقصود بها جودة التفكير في شؤون الحياة وتطبيقات العلوم. ولا قيمة لهذه الفضائل بعيد عن الفضائل الخلقية والتي تعني ممارسة الأفعال الخلقية الجميلة، المقصودة والناجمة عن الإرادة، والمترفعة عن مطالب الجسد الدنيئة، سريعة الزوال، إضافة إلى قوة التحكم في النفس وانفعالاتها، واعلاء سلطة الوعي، وجودة تمييز الأفعال الجميلة، ويضاف إلى هذه الشروط شرط الديمومة الزمنية، لأن السعادة ليست شيء عارض بل متجذر في الذات، وتحقيقها مرتبط بتحقيق المنعة، العقلية الدائمة،

¹ - أبو نصر الفارابي: رسالة التنبيه على سبيل السعادة، تح: د سبحان خليفات، الجامعة الأردنية، ط 1، عمان، 1987، ص 226، 225.

² - الفارابي: كتاب تحصيل السعادة، تق: علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط 1، 1995م، ص 86.

والمبنية على الإرادة الحرة، ولذلك تتصف بالفضيلة، وكلما تخلصت النفس من أسر الجسد، اتسمت بالفضيلة، وهذا يجهزها لبلوغ السعادة في المدينة الفاضلة، وذلك بتطبيق العلم المدني من خلال تأسيس الدولة.

علاقة السياسة بالسعادة:

الواقع أن ما دفع الفارابي للفلسفة هي السياسة، ولذلك تعتبر سياسته فلسفة، وفلسفته سياسة، كما ربط السياسة بالسعادة، باعتبارها من العلوم العملية العالية، والتي بصلاحيها تصلح حال الرعية، ولأنها خادمة لغايات الإنسان وعلى رأسها السعادة، ولا سعادة بعيدا عن ممارسة العقل، وتطبيق نتائج ذلك في السياسة، وبالتالي فهي خادمة للحكمة، فالسعادة ليست حالة فردية فحسب بل لابد أن تكون لها تجليات في الحياة الاجتماعية، وذلك من خلال السياسة، فكل فرد "يحتاج إلى قومٍ يقوم له كلٌّ واحدٍ منهم بشيء مما يحتاج إليه"¹. ومعنى ذلك أن الإنسان مدني بطبعه، والمدينة الفاضلة هي المؤسسة التي يجتمع فيها الأفراد، بهدف التعاون، بكل اخلاص، ومحبة، لتحصيل السعادة الحقيقية، ولا سعادة للرئيس أو المدني أو الملك من دون أن تتحقق سعادة رعيته، ولا سعادة لبعض الرعية على حساب البعض الآخر، ولذلك يسهر على تسخير بعضهم لبعض، وقيم الوسطية، وبمنتهى الحكمة، والعدل، ليتحقق التكامل فيما بينهم، والتي تعني أداء كل فرد لمهمته وواجباته الخاصة به. لأنه الأفضل والأنسب لأدائها.

ولا سعادة بعيدا عن المدينة، لأنها المحل المناسب لممارسة الخير الأفضل والكمال الأقصى، وهي رمز للتحضر، ومن شروطها تطبيق العدالة الاجتماعية، قال الفارابي: "الخير الأفضل والكمال الأقصى إنما يُنال أولاً بالمدينة، لا باجتماع الذي هو أنقص منها"²، وكي نبليغ الكمال الموجود فينا بالقوة، والذي خُلِقنا من أجله؛ لابد لنا من الاتصال بغيرنا، والاجتماع بهم، والاجتماعات منها الكاملة، ومنها غير الكاملة؛ الكاملة ثلاث: الكبرى وهي المعمورة أو مجموع الأمم، والوسطى وهي أمة من الأمم، والصغرى وهي جزء من أمة، والمدن أقسام منها الفاضلة وغير الفاضلة، "فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تُنال بها السعادة في الحقيقة، هي المدينة الفاضلة؛ والاجتماع الذي به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل، والأمة التي تتعاون مدنها على ما تنال به السعادة هي الأمة الفاضلة، وكذلك المعمورة الفاضلة، إنما تكون إذا كانت الأمم التي فيها تتعاون على بلوغ السعادة"³، فمن خلال نظرة الفارابي السوسيولوجية يمكننا التمييز بين المجتمعات الكاملة، وأخرى غير الكاملة، والفيصل بينهما هو مدى وجود تعداد سكاني، وتماسك حقيقي، وفعلي، بين الأفراد.

ومن صفات المدينة الكاملة غياب الجدال الديني والدنيوي بين أفرادها، كي يسود الانسجام الحقيقي بين قلوب أفرادها، وبالتالي تقل الصراعات والتصدعات داخل المدينة، لأن وجود الجدال دليل على أن أحد الأطراف على خطأ، ولا يمكن تصور تأسيس المدينة الفاضلة على أسس خاطئة. ولأن الجدال لا يفكك وحدة المدينة فحسب بل

¹ - الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 290.

² - الفارابي: المصدر نفسه، ص 291.

³ - الفارابي: المصدر نفسه، ص 292.

هو ناتج عن وجود خطأ معرفي، أي أن هناك من يجادل عن قصد وانحراف فكري إيديولوجي، ومن مسؤوليات رئيس المدينة الفاضلة التفطن لهم وضبطهم حتى لا ينتشر التشويش داخل المدينة الفاضلة، ويتفرق شملهم.

والمدينة الفاضلة أصبحت كذلك لمعرفتها بالسعادة، وهي غاية الإنسان، وأما الشقاء فهو من نصيب من جهل ماهية السعادة، وضَيَّع سبيلها، وهي المدن غير الفاضلة، لانشقاقها عن الفطرة الإنسانية الطيبة، ومن أشكال هذه المدن: المدينة الجاهلة، والمدينة الفاسقة، والمدينة المبدلة، والمدينة الضالة، ولا يتسع المجال هنا لذكر كل تفاصيل هذه المدن، بل ذكر الأهم؛ ومنه أن المدينة الجاهلة هي " التي لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم، وإن أُرشِدوا إلها فلم يفهموها ولم يعتقدوها، إنما عرفوا من الخيرات بعض هذه التي هي مظنونة في الظاهر أنها خيرات، من التي تُظن أنها هي الغايات في الحياة، وسلامة الأبدان واليسار والتمتع باللذات، وأن يكون مخلى هواه، وأن يكون كل واحد من أهلها مكرماً ومعظماً"¹. فبحلة نقدية نجد الفارابي يصف أهل المدينة الجاهلة بأنهم أشخاص ليست لديهم إمكانيات عقلية لاستيعاب فكرة السعادة، ولهذا انغمسوا في اللذات لموافقتها لفطرتهم، ولتمكنهم من ادراكها بسهولة، فصار كل همهم تحصيل المتع الجسدية، كالغنى، والشهرة، لأن تغليب سلطة البدن من شأنه اضعاف قدرات النفس، فتصبح مقيدة به، وأسيرة طلباته، فتغيب الحكمة، وتحل الحماقة والجشع، ومن صفات المدينة الفاسقة مخالفتهم لأوامر الله تعالى، بالرغم من علمهم بها، واتباعهم للهوى، فيحصل انفصال بين العلم والعمل.

وتوجد مدينة مبدلة، وهي مدينة كانت فاضلة، ثم تحولت إلى أخرى فاسدة، بسبب بعدها عن السعادة ونسيانها لطريقها، وإذا كانت آراؤها فاسدة فستكون مدينة ضالة، والجهل، وفساد الرأي هو سبب شقاء أهل هذه المدن، ولعدم امكانياتهم رؤية الأمور على حقيقتها، فيسود الانشقاق داخل المجتمع، وتتحول العلاقات من علاقة التعاون والرحمة إلى علاقة التنافر والظلم.

ووضح الفارابي صفات المدن الفاسقة، والمبدلة، والضالة، كي يتم تجنبها أو الخروج منها وتغييرها، ولا يعني ذلك عدم وجود أشخاص فضلاء فيها، ولكن الحكم يشمل الأغلبية، يقول الفارابي: "حُرِّم على الفاضل من الناس المقام في السياسات الفاسدة ووجبت عليه الهجرة إلى المدن الفاضلة إن كان لها وجود في زمانه بالفعل، وأما إن كانت معدومة، فالفاضل غريب في الدنيا وردى العيش، الموت خير له من الحياة"². فهو هنا يوجب الهجرة من المدن الجاهلة لأنها أماكن غير صالحة لاستقبال السعادة، وكأن الشقاء شعور وحال معدي لا بد من تجنبه. والفيلسوف روح عصره، لا يسعد في وسط تعيس، ولا ينعزل عن غيره ليحقق سعادته الفردية، بمعزل عن الآخر كما تصور بعض المتصوفة، لأن الغاية من حياته هي معرفة وفعل الخير، وبلوغ السعادة، ومقاسمتها مع الغير، ولا تكتمل السعادة إلا حين يبلغ المدينة الفاضلة، وحين يحققها، حيث يعمل أفراد المدينة وفق رئيسهم بالقواعد الأخلاقية، وبشكل متعاون، وبإخلاص، لأن أساس المدينة هو خدمة الفرد وليس العكس. وبالتالي المدينة الجاهلة

¹ - الفارابي: المصدر نفسه، ص 314.

² - الفارابي، فصول منتزعة، م. س، ص 95.

والتي هي ضد المدينة الفاضلة، من أهم صفاتها قلة عدد أفرادها، وتباعدهم، وتفككهم، كما أن أهلها لم يفكروا بالسعادة العقلية بل يطلبون السعادة اللحظية الصادرة من النفس الغضبية والشهوانية.

ومن المدن الضالة، المدينة الفاسقة؛ والتي يعرف أهلها سبيل السعادة ولكنهم لا يسلكوه، إما استصعاباً له، أو لأنه ضد هواهم، وهناك المدينة المبدلة وهي التي عرف أهلها السلوك الفاضل لكنهم غيروه.

فالسعادة بذلك مكسب اجتماعي، لأن سعادة غيرك تسعدك، مادام أن لديك قلب سليم، وحس اجتماعي، يرى في سعادة الآخر استكمالاً لسعادته، ولا يسعد بمفرده، إذ لا بد من وجود من يقاسمه، ويشاركه سعادته. وهنا تظهر النزعة الاجتماعية في فكر الفارابي، ونلاحظ هذا من خلال عنوان كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، حيث اختار له عنوان يعكس الروح الجماعية، وكان بإمكانه أن يختار له عنواناً مختلفاً مثل "سبيل السعادة"، كما اختار كلمة آراء ليعكس الحس الديمقراطي الموجود في المدينة، ويستبعد الحكم الاستبدادي، الذي يقضي على الإرادة الحرة وبالتالي الفضيلة التي تعتبر أهم سبيل للسعادة.

والمدينة الفاضلة هي المكان الذي تمارس فيه الفضيلة الخلقية، ومن أهم صفات أفرادها؛ التمتع بالقلوب النقية الصافية، وقائدها يجب أن يكون فيلسوف، لأنه الأقدر على تسيير شؤونها بحكمة؛ والأصلح لوضع النواميس، ويتصف بسعة الصدر، كي يتمكن من قبول المعارضة إذا وجدت لأنه بحكمته مستوعب لشعبه، وبالتالي تصبح السعادة حالة من التعاون الاجتماعي، وليست مجهود فردي، قائم على الوعي بأهمية الآخر، والشعور بأهميته، وتكميل مهامه، وبذلك يزيد الشعور بالانتماء للمدينة بين الأفراد، ومهما جاهد الإنسان نفسه لا بد أن يأخذ رأي غيره فيه، ويتبع طريق الخير، ويسترشد بأوامر الدين، ولا بد من معاضدة التنظيمات السياسية لشروط السعادة، لأنها الأقدر على مواجهة الشر وقمعه، ونشر المحبة والعدالة بسيادة القانون على الجميع، وبذلك نحافظ على تماسك المدينة، وكلما انتشرت المدن الفاضلة كلما زالت الشرور من المدن، ومن الأمم.

والاجتماع المتوسط الذي هو المدينة يعتبر ركن أساسي عند الفارابي باعتبار أن الإنسان يأنس بغيره، ويحتاج في بلوغ حاجياته للآخر. وهو الذي يمهد لحصول الاجتماع الكبير وهو اجتماع الأمة.

وقائد المدينة هو الفيلسوف أو النبي أو الإمام، وهو شخص صالح لأن مدينته كذلك، وهي التي تضمن له بلوغ السعادة، ولأجل تحقيق هذه الغاية تفلسف الفارابي. وهو إلى جانب تأكيده على أهمية أن يكون الحاكم فيلسوفاً، يصبر عليه أن يتكلم بلغة العامة، أي يفهم تفكيرهم، ومطالبهم، وأحلامهم، ويُشرع نواميس لا تتعارض مع معتقداتهم، كي لا يكون هناك معارضة، أو لوم من شأنه أن يحدث انشقاق اجتماعي بين الراعي والرعية، حينها ستفقد المدينة طمأنينتها، ولأن أهم غايات الدولة هي غايات أخلاقية، وتتمثل في محاولة تحقيق أخلاق السعادة، ولن يتاح للرئيس ذلك إلا إذا اتصف بالحكمة والنبوة، كي تكون لديه فرصة تلقي المعرفة من العقل الفعال، وكي يتحلى بالتفكير المنطقي، والنظرة الاستشرافية، ولأن المدينة التي تسود فيها المعرفة ستكون قريبة من السعادة. يقول الفارابي موضحاً معالم المدينة الفاضلة: "فالخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة، لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها، ولما كان شأن الخير في الحقيقة أن يكون ينال بالاختيار والإرادة، وكذلك الشرور إنما تكون بالإرادة

والاختيار، أمكن أن تجعل المدينة للتعاون على بلوغ بعض الغايات التي هي شرور، فلذلك كل مدينة يمكن أن يُنال بها السعادة"¹. فالسعادة حالة مدنية يعيشها الإنسان المتحضر والراقي لا في مظهره فحسب بل في جوهره كذلك، لأن حياة البادية تفرض على المرء العيش بطبيعته الحيوانية غير المتحضرة كي يتمكن من الحفاظ على بقائه حياً. وهناك سعادة حقيقية فعلية، وسعادة يُظن أنها سعادة، السعادة الحقيقية مبنية على العلم الخالص والعمل بمقتضاه لمرضاة الله تعالى، والهادف لكشف الحقيقة لذاتها، أما العلم النفعي، الدنيوي، فلا يورث إلا الشقاء، والتعاسة، لأنه يجعل صاحبه يعيش في ظلمات الجهل، والغفلة.

ويضيف الفارابي قائلاً: "فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة، هي المدينة الفاضلة؛ والاجتماع الذي به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل، والأمة التي تتعاون مدنها على ما تنال به السعادة هي الأمة الفاضلة، وكذلك المعمورة الفاضلة، إنما تكون إذا كانت الأمم التي فيها تتعاون على بلوغ السعادة"². فالمدينة الفاضلة مدينة متطورة نشيطة، تبنى على سواعد الأقوياء، عقولا وأجساداً، وعلى حسب قرب الناس في المدينة الفاضلة من الرئيس الأول أو الإمام أو الفيلسوف يكتسبون مرتبتهم فيها، لأن همهم ليس مجرد العيش فيها، بل تديرها على أحسن وجه، وقواعد المدينة الفاضلة هي الجدية في العمل، والتلاحم الحقيقي بين الأفراد، والبعد عن المشاحنات، وإخلاص النية، والتأسيس الصحيح، وذلك يكون حين يتولى رئاستها الفيلسوف، وكلما كان الرئيس حكيماً، كلما دل رعيته على سبيل الفضيلة، الأمر الذي يرشدهم للسعادة، مادام أن الفضيلة والسعادة وجهان لعملة واحدة.

فالمدينة الفاضلة متماسكة الأركان تسود أفرادها مشاعر التعاون والرحمة، ولا مكان للسعادة الفردية، ولا للأنانية، لأن سعادة الكل مرهونة بسعادة الفرد، ولذلك تسود روح المحبة الحقيقية، ويتعاون الكل بشكل صادق لبلوغ السعادة. ولأن التعاون في أصله لا يتحقق إلا إذا كانت القلوب صافية، قائمة على المحبة، والإخلاص، ولا تحمل الضغائن والأحقاد، ومبنية على التسامح، والتعايش مع الآخر بعد إدراك أهميته للذات.

ويضيف الفارابي قائلاً: "فكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب، وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس... وكذلك المدينة، وأجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة الهيئات. وفيها إنسان هو رئيس وآخر يقرب مراتبها من الرئيس... ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم، فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يُخدمون ويكونون في أدنى المراتب، ويكونون هم الأسفلين"³. فحسب الفارابي توجد طبقة طبيعية في المجتمع، ووجودها هو عين المساواة، لأن ذلك يتيح تسخير البعض للبعض الآخر، ومن دون ذلك تتعطل أحوال المجتمع، وإذا أدى كل واحد وظيفته التي وُجد من أجلها يحدث الانسجام بين طبقات الشعب، بداية من الرئيس الذي لا رئيس عليه، نزولاً إلى الذي لا رئاسة له، فيكتفي بالخدمة،

¹ - الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، م. س، ص 291.

² - الفارابي: المصدر نفسه، ص 292.

³ - الفارابي: المصدر نفسه، ص 292، 293.

والرئيس شبيه بالأول، والمرؤوس المكلف بالخدمة شبيه بالمادة الأولى، أو الأسطقسات، ويكون ذلك عين العبودية لله تعالى، فالعبادة لا تنحصر في المناسك المعروفة، بل هي كذلك معاملات وأخلاق. كما أن أداء كل فرد لمهامه المنوطة به باب من أبواب السعادة له، ولباقي أفراد مجتمعه.

وصفات الرئيس موجودة فيه بالفطرة، وبالإرادة، وهي التي تمكنه من تولي منصبه، لأن صناعة رئاسة المدينة الفاضلة صناعة رئيسة، وليست مرؤوسة، تشترط الحكمة، وحسن تقدير الأمور، وهذا كي يأخذ كل عضو مكانته اللائقة به، والمناسبة لقدراته، وعلى الرئيس أن يكون أفضل شخص في المدينة وبذلك لا بد أن يتصف بالفطنة وسلامة الأعضاء والحواس، وقوة وعمق الفهم، وفصاحة اللسان لجودة تعليمه، إضافة لاتصافه بجودة التذكر والتخيل الخصب والمبدع، والتميز في الخطابة، والقدرة على الاقناع، وأهم ما يحتاج إليه وجود " قدرة بلسانه على جودة التخيل بالقول لكل ما يعلمه. وقدرة على جودة الإرشاد إلى السعادة، وإلى الأعمال التي بها تبلغ السعادة، وأن يكون له مع ذلك جودة ثبات ببذنه لمباشرة أعمال الجزئيات"¹، فالرئيس يستفيد من فيض العقل الفعال إلى العقل المنفعل فيصير هذا الأخير عقلاً مستفاداً، ومتى بلغ هذه الرتبة كان هو الرئيس، والرئاسة هي قمة الوظائف، وصاحبها يملك همة عالية لا تنكسر أمام الصعوبات، ولا يتأثر بالشهرة، أو كسب المال لأجل الثروة، بل يترفع عن الرذائل، وبالتالي الملك أو الإمام أو الفيلسوف هو الأحق بوضع نوااميس المدينة، وذلك بسبب ملكاته الفطرية، والكاريزما التي يمتلكها، وقدرته على الاستنباط وقياس الغائب على الشاهد.

والسياسي المحنك هو صاحب نظرة استشرافية مستقبلية، كلية شاملة، وحكيمة، ولا يتأتى له ذلك إلا بوجود التجارب واكتساب الخبرات. وهذه الصفات لا بد أن تظهر لعامة رعيته، وهي من تمام القوة المعنوية للحاكم الفيلسوف. وكأنه انسان استثنائي.

ولا يصلح كل شخص للحكم، وهذا يفسر فشل بعض الملوك والقادة عبر التاريخ، وبالتالي الملوك ملوكاً بالطبيعة أولاً، ثم بالإرادة ثانياً، ومن الصعب تحقق كل شروط الرئيس في شخص واحد، ولذلك يمكن أن تتوزع الشروط على عدة أشخاص، فيكون هناك رئيس ومشاركوه، أو شخص حكيم وشخص اجتمعت فيه باقي الشروط حينها يمكن أن يشترك شخصان أو أكثر في الحكم، ولا يُعقل أن يُشرع لهم الغير، ولا يعني ذلك أن نظام حكم المدينة ديكتاتوري ولا جمهوري، بل حكم ملكي ولكن سلطته الملكية مقيدة بالشرعية، لأن هدف الحاكم هو تحقيق الكمال الأول أو السعادة القصوى في الدنيا والآخرة، ولذلك عنون الفارابي كتابه بـ "آراء أهل المدينة الفاضلة" ونستنتج من هذا أن الحكيم لا يتعصب لرأيه بل يسمح بالمعارضة، والمشورة مادام أن غاية أهل المدينة واحدة، وهي الوصول إلى السعادة.

وما نلاحظه على الفارابي هو محاولته عقلنة السياسة، من خلال الإقرار بوجود اتصال بين السلطة الفكرية المعنوية، والسلطة السياسية، بل إنه يعتبر أن السياسة خادمة للحكمة، لأنها أساس بناء الدول، واستمرارها،

¹ - الفارابي: المصدر نفسه، ص 299.

ونجاحها، وأي رئيس يكون بعيداً عن الحكمة، سيكون بعيداً عن السعادة، ليست سعادته الشخصية فحسب، بل حتى سعادة رعيته.

ومن شروط تحقيق السعادة في المدينة الفاضلة جودة التعليم، ومن أهدافه بلوغ الكمال الإنساني، أي تمكين أهل المدينة من معرفة "مبادئ الموجودات القصوى، ومراتبها، والسعادة والرئاسة الأولى التي للمدينة الفاضلة، ومراتب رئاستها. ثم بعد ذلك الأفعال المحدودة التي إذا فُعلت نيلت بها السعادة، وألا يقتصر على أن تُعلم هذه الأفعال دون أن تُعمل ويؤخذ أهل المدينة بفعلها"¹. فيجب على أهل المدينة الفاضلة يعرفوا السبب الأول للوجود وهو الله تعالى معرفة تليق بجلاله. وعلمهم أن يكونوا على اطلاع بالعقول المفارقة وكيفية تسلسلها وفيضها، وصولاً إلى العقل الفعال المسؤول عن تدبير الكون والفساد(الأرض)، مع معرفة بالأجرام السماوية، والأجسام الطبيعية.

ولا يكتمل العلم إلا بدراسة النفس البشرية، وكيف ترتقي عن الجسد، وتلتزم بفضائلها. ومن أهمها الحكمة، فلا سعادة لجاهل، ولا حكيم تعيس، ولذلك يعتبر أن التعليم من أهم مقومات المدينة الفاضلة، ولا بد من تعميمه وتطويره، من طرف الحاكم، كي يعم كل الأفراد، أما الذين يمتلكون صعوبة في التعلم، فيمكن إيصال المعلومة لهم عن طريق المحاكاة، مثلاً، وعبر الخطابة لتحقيق الاقناع، لأن التخيل للعوام والتصور للحكماء. ولا معنى للتعليم النظري إذ لا بد من تطبيق ما يتعلمه المرء لإصلاح دينه ودنياه.

والتعليم الفعلي أو التطبيقي أو العملي يتم فيه تطبيق ما يتعلمه الشخص نظرياً، مع الاستعانة بالتمارين والقدوة، أما العلم النفعي، الدنيوي، فلا يورث إلا الشقاء، لأنه يحبس صاحبه في ظلمات الغفلة وهنا يسبق الفارابي نظريات التعليم الحديثة التي أكدت على أهمية التعليم التطبيقي، وذلك لنشر التعليم لكل الشرائح الاجتماعية مهما كان مستواها.

ويؤكد الفارابي على أهمية التحلي بالفضائل الفكرية، والتعود عليها منذ الصغر، كي تدخل في تركيبة شخصيتنا، والنتيجة من قوة العقل، وجودة الفهم، وحسن الرأي، ولذلك نجد أن الحكيم مُصِيب في اختياراته، لأنها مؤسسة على التعلم والتربيت وعدم التسرع، مما يكسبه نتائج تعود عليه بالسعادة.

وللسعادة أبعاد سياسية واجتماعية، وأي سياسة ناجحة اجتماعياً هي التي تضمن لأفرادها تحقيق السعادة، ولكن ليست أي دولة يمكنها ذلك، بل الدولة التي يحكمها الحكيم أو الفيلسوف، أي الذي يصل إلى الحقائق عن طريق "العقل الفعّال"، والبديل الوحيد عن المدن السعيدة هو الموت للانتقال إلى الدار الأبدية حيث السعادة القصوى. لأن السعادة حالة عامة، وعدوى جماعية، والسعيد هو الذي يجد طعم السعادة مهما كانت الظروف الاجتماعية قاسية.

والغاية من تأسيس الدولة هي السعادة: سعادة الراعي والرعية، يقول الفارابي: "أن الانسان إنما يصير إلى الكمال الأقصى الذي له ما يتجوهر به في الحقيقة، إذا سعى عن هذه المبادئ نحو بلوغ هذا الكمال؛ وليس يمكنه

¹ - الفارابي: السياسة المدنية، ص 84، 85.

أن يسعى نحوه إلا باستعمال أشياء كثيرة من الموجودات الطبيعية؛ وإلى أن يفعل فيها أفعالاً تصير بها تلك الطبيعيات نافعة له في أن يبلغ الكمال الأقصى الذي سبيله أن يناله. ويتبين له مع ذلك في هذا العلم أن كل إنسان إنما ينال من ذلك الكمال قسطاً ما وإن ما يبلغه من ذلك القسط كان أزيد أو أنقص؛ إذ جميع الكمالات ليس يمكن أن يبلغها وحده بانفراده دون معاونة ناس كثيرين له¹. ويظهر هنا مشروع الفارابي في الإصلاح الاجتماعي، ونزعتة الجماعية؛ فالسعادة لا تحب الأنانية بل تزيد بالمشاركة، ولا بد أن تعم جميع أهل المدينة الفاضلة، وكتحصيل حاصل يسعد الفرد، هذا من جهة، ويؤكد من جهة أخرى على أهمية الشعور بالزهد، والترفع عن الماديات، والتحكم في الغضب وكل نوازع النفس، وامتلاك إرادة قوية.

ولنصل للسعادة، لابد من التمكن من العلم وممارسة الفضيلة، وتغليب النفس العاقلة على النفس الغضبية والشهوانية، يقول الفارابي عن الفضيلة الخلقية بأنها " الفضيلة الرئيسة التي لا فضيلة أشد تقدماً منها في الرياسة"²، والفضائل عنده أربعة وهي: الفضائل النظرية، والفكرية، والخلقية، والصناعات العملية، والفكر الإسلامي عامة وفكر الفارابي خاصة لا يعتبر العمل الحرفي شيء مهين، بل بالعكس يعتبره فضيلة لأنه صعب ومتعب، وفيه تتغلب الذات على طبيعة الكسل الفطرية فينا.

وأخلاق الفارابي مؤسسة على ممارسة الفضيلة لأن الرذائل لا تؤثر لمرتكبها إلا الندم، والألم، أما الفضيلة فهي عنوان السعادة، ونصل إليها من خلال التعليم، والتأديب.

كما يؤكد الفارابي على أهمية قيام العدالة سواء الطبيعية أو الاجتماعية، أما الطبيعية فهي التمتع بالصحة البدنية والنفسية، وأما العدالة الاجتماعية فهي حين يتلوى كل شخص المهام المناسبة لتكوينه، فلا يتعرض للقهر بتنحيته من وظيفته المناسبة له، وقد يظهر العدل قوة في المجتمع أي باختيار الأفراد، كما قد يظهر فيهم خوفاً وجبن لتعاملهم مع أشخاص أقوى منهم.

والسعادة عند الفارابي هي حالة اجتماعية، لا تُعاش بمعزل عن الآخر ولا ضد له، ولتتحقق لابد من وجود تعاون حقيقي بين الأفراد، هذا التعاون يكون؛ صافي النية، منطلقه السلام، والهدوء الداخلي، وبهذا يصبح المجتمع كاملاً، أما المجتمع غير المتعاون فليس بكامل.

والهدف من وجود طرائق متعددة لبلوغ السعادة هو ضمان الوصول إليها، وكذلك لفتح المجال أمام الناس ليختار كلا حسب شخصيته. فإذا كان التصوف سبيل قلبي للسعادة الفردية يصل من خلاله العابد إلى مبتغاه، فإن ممارسة الحكمة هي سبيل الفيلسوف، فتبدأ السعادة عقلية، ثم تتجاوز كل ما هو حسي، وعقلي إلى ما هو لدني، وحديسي، وعرفاني، ووجداني، وذلك من خلال إشباع الروح باللقاء الإشرافي، وتقبلها لفيض النور الرباني.

¹ - الفارابي: تحصيل السعادة، م. س، ص 43.

² - الفارابي: المصدر نفسه، ص 64.

لو نضع كلام الفارابي في ميزان النقد سنجد أن أفكاره لم تكن أفكار نظرية فقط، بل كانت عبارة عن فلسفة عملية، إصلاحية، ذات طابع إنساني، متفائل، جسدت بفعل الدور الحقيقي للفيلسوف، السابق لعصره، والذي لا يهتم بالفرد فحسب، بل حتى بالمجتمع، وبالأمة، ويخطط لمشاريع عملية، وأخلاقية مستقبلية، ربما لعلمه بصعوبة تطبيقها على الناس في تلك الفترة، وقد حاول تطبيق مشروعه الإصلاحي في حياته، من خلال إيمانه بوجود السعادة، ومحاولة بلوغها من خلال حياة الزهد، والتقشف المادي، وشعاره: الزاهد ليس هو الشخص الذي لا يملك شيء، بل هو الشخص الذي لا يملكه شيء، مع طرحه لمعنى جديد في التقشف، والذي يتجاوز الانعزال للتفرغ للعبادة، إلى المشاركة في مختلف فعاليات الحياة الاجتماعية بهدف فهمهما، وإعادة تأسيسها من جديد. وإذا اتصف الشخص بهذه الصفات فسيصل إلى تحقيق التوازن بين الجسد والنفس والروح، وهذا كمرحلة أولى من بعدها يتاح له الاتصال بالعقل الفعال لأجل بلوغ السعادة.

والفارابي قام بتوحيد الفلسفة مع السياسة، وجعل السياسة خادمة للحكمة، وأسس نوع من التناغم بينهما وهذا كي لا يتخرج رجال السياسة من الحكماء، وذلك لوحدة غايتهما وهي السعادة الكاملة والنهائية، وبالتالي أراد إصلاح ذات البين بين الطوائف المتناحرة بسبب السياسة

ومن الإيجابيات التي تحسب له تسليطه الأضواء على أهمية العلم، والتعلم، وزرع المحبة، والتسامح بين الأفراد، والترف عن حب الماديات، والبعد عن الأنانية، والشجع، كي يرتقي المجتمع ويصل إلى المدينة الفاضلة، متجنباً الوقوع في مضاداتها بعد معرفته لها.

كما أنه استخدم مصطلح المدينة لا القرية، وذلك لأنه يؤسس لمشروع مجتمع حضاري من الصفر، متجاوزاً بذلك أي إصلاحات ترقيعية.

ولكن للأسف نجد أن مشروع الفارابي من الصعب تحقيقه على أرض الواقع، ولذلك بقي حبيس كتبه، لأن أفكاره مثالية، ومن الصعب جداً تطبيقها، مثل صعوبة تغيير طباع الأفراد، ولانحطاط الأخلاق في المجتمعات خاصة المعاصرة والتي تخلق فيها الإنسان عن إنسانيته الحقيقية. واكتفى برفع الشعارات الجوفاء المنافقة. ومن الصعب وجود إنسان مفارق وشفاف، يؤثر الزهد والتقشف على الانغماس في ملذات الدنيا وخاصة في وقتنا الحالي، مما يؤدي بنا لاعتقاد أن بعض نظريات الفارابي تبقى حبيسة عصره وزمانه. ولأن اللذات ليست دائماً هي سبب الشرور والتعاسة والحروب.

وبالتالي يمكننا تصنيف بعض أفكاره ضمن الأفكار المثالية، ولأن المفيد للمجتمع تشخيص مشاكله وأمراضه، ووصف علاجها.

واشترطه لوجود الجماعة كي تتحقق السعادة الفردية الفضلى فيه نوع من المبالغة، خاصة إذا عاش الشخص في وسط بيئة سيئة، أو منحلة، وحينها لن تتحقق السعادة إلا بالتفرد، والانعزال.

كما أن اعتقاده بأن الرئيس عندما يصل إلى مرتبة السعادة، فإنه يسعد سعادة جميع الرؤساء الذين سبقوه وهو كلام غير منطقي ولم يتحقق في الواقع لأن لكل رئيس مشاعره الخاصة به، وحتى ما يسعده قد لا يسعد غيره.

ويعبر موقف الفارابي من السعادة عن نظرة مستقبلية، تبشر بسعادة مؤجلة، نظراً لعدم توفرها في عالم الحس، وهي مشروطة بقيام مدينة فاضلة، وهذا للأسف لم يتحقق بعد. كما أن الإنسان المعاصر أصبح فكري عملي ولذلك يميل لتحقيق منفعة اليوم، ولا يفضل المصالح المؤجلة.

والواقع أن فلسفته تحمل مشروعاً إصلاحياً اجتماعي سياسي، لم يتم اكتشاف كل خباياه، وهو مدفوع بمشاعر الألم الناتج من ملاحظته لوجود انهيار اجتماعي في مختلف الأمصار، ولذلك حاول تقديم نظرة تأسيسية وفق قيم الدين الإسلامي، وليست إصلاحية فقط، لأن البناء إذا كان غير سليم فلا يمكن ترميمه، وإن حاولنا فلن يصمد أمام ضربات الحياة، ولذلك علينا تأسيس المدينة الفاضلة، والتي لم تتحقق بعد، لعدم وجود أشخاص يتبنون هذا الفكر السياسي، ولهذا فأى رئيس يريد ضمان نجاح سياسته لابد له من اتباع توجيهات الفارابي؛ ومن أهمها ربط الأخلاق الفاضلة بالسياسة، وأن المكان الفعلي للفيلسوف هو كرسي الحكم، ولا بد له من أن يكون محاط بالحكماء، لأن القرارات الخاطئة قد تؤدي الرعية، فيتذمرون، وقد يؤدي ذلك لوقوع الفوضى، الأمر الذي يعكر صفو المدينة الفاضلة، ويؤدي بها ذلك إلى الانهيار نتيجة الظلم.

ويقول الفارابي عن صفات الرئيس: "يكون ذلك الإنسان إنساناً لا يمكن أن يرأسه إنسان أصلاً؛ وإنما يكون ذلك الإنسان إنساناً قد استكمل، فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل"¹، فالرئيس فوق الجميع، ولا يصل إلى الفضيلة إلا إذا استكمل جميع الصفات الحسنة، وتمتع بالحرية فلا يسمح للغير بالضغط عليه ولو كانت نفسه الأمانة بالسوء. ولذلك فطريق السعادة هي الفضيلة، وهذه الأخيرة تتأسس على الحرية المطلقة، فيكون الفعل بدافع الإرادة الحرة، التي تحول أمام كل تدخل أو انحراف عن جادة الصواب.

وقدم الفارابي صفة جديدة للفيلسوف الرئيس تضعه تحت طائلة الحسد، وهي كونه شخص سعيد، لقدرته على فهم الحياة وخبرها، مما يجعله ينجو من الأعيها. ولذلك لا يُعد الفارابي فيلسوفاً فقط، بل هو مصالح اجتماعي، يحاول تجاوز الأخطار التي تحول أمام سعادة الجميع، بنظرة وجودية مستقبلية، يتفوق فيها الفيلسوف على عصره.

ومن المآخذ المسجلة ضده: اعتباره أن الرئيس هو كائن استثنائي، وهذا يعطل مصالح الدولة، فكيف بالمجتمع أن يوفر أمثال هؤلاء كل فترة لتولي مقاليد الحكم؟

كما أن الفارابي لم يحدد مهام الرئيس بشكل واضح ودقيق، وهو لم يوضح كيفية إدارته للمدينة، ولا سلطاته، فما نلاحظه غموض في توزيع السلطات، وعدم ضبطه لبنود دستور المدينة الفاضلة.

¹ - الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 297.

كما أنه لم يفرق بين الحياة الأخلاقية الفاضلة للفرد، والحياة الأخلاقية للمجتمع، فما دمت أنك تعيش في مدينة فاضلة فأكيد أنك شخص فاضل، ولكن العكس غير صحيح.

وجمع الفارابي بين شخصية الرئيس، والفيلسوف، والنبى، واشترط عليه الاتصال بالعقل الفعال، كي يعرف طريق السعادة ويتمكن من الوصول إليه.

ومن المبالغات التي وقع فيها الفارابي اعتقاده بإمكانية وجود شراكة في الرئاسة والسلطة بين الرئيس وشخص آخر تنطبق عليه بعض صفات الرئاسة، وهذا ما لا يمكن تطبيقه على أرض الواقع، نظرا لوجود أنانية وحب السلطة بشكل فطري في الإنسان.

الخاتمة:

وأخيراً نخلص إلى القول أن انتشار العلم في المجتمع حماية له من كل الآفات الاجتماعية، وأولها التعاسة، فلا سعادة للجهلة، ولا علم بعيد الصلة بالعلم سبحانه وتعالى، والذي يحصل -بصيغة فارابية- بوجود الفيض من "الأول" عبر "العقل الفعال" إلى "العقل الهولاني" الذي يصير "عقلا منفعلا" ثم يصير المنفعل "مستفادا".

والعقل ملكة قابلة لاستقبال المعارف بالفطرة، وإذا لم يحصل كان ذلك بسبب وقوع تشويش حال أمام قيامه بمهمته، وهي ممارسة الحكمة، وحين يتفلسف المرء سيتلقى الفيض من الله تعالى فهو واهب الصور ومفيضها، على من يشاء من عباده، ومن الملاحظات المسجلة على فكر الفارابي تأثره بالنزعة الأفلاطونية، التي تعلي من قيمة العلم والمعرفة، وتشيد باستخدام العقل، ولكنه يقلل من مبادرة الذات للتعلم، وذلك حين يجعل الذات البشرية في حالة ترقب وانتظار لحصول الفيض الإلهي، فلا نصل إلى الحكمة التامة من دون مساعدة إلهية.

كما أن فكرة المدينة الفاضلة لم تأت من عدم، فالفارابي تأثر بمرجعيتين؛ يونانية مع جمهورية أفلاطون، والأخلاق إلى تيقوماخوس مع أرسطو، وإسلامية مع الدين الإسلامي الحنيف، ويظهر ذلك في اشتراطه لقيامها بظهور الإنسان الفاضل، الذي يسميه بالمدني، والذي يقوم بإرشاد الأنفس إلى الفضائل، وحثها على ترك الرذائل، مستعينا بتعليمات الوحي السماوية، وهذا نظرا لإيمانه بوجود مطابقة بين الفلسفة والدين، إضافة لذلك اهتمامه بالعلم والمعرفة، ولذلك اشترط أن يتولى تسيير شؤون المدينة ورأسها أكثر المفكرين علماً، ليتمكن من الرقي بها وإيصالها لمرتبة الفضيلة، وبالرغم من وجود هذا التأثير إلا أن ذلك لا يلغي أصالة الفارابي وإضافاته، ومن أهمها اقتراح وجود رئيسين في حال صعبت مهمة الرئيس الواحد وكذلك اشتراطه ربط الاخلاق بالسياسة كي تتحقق سعادة الرعية وكتحصيل حاصل سعادة الرئيس.

وبالتالي أصبحت السعادة حكراً على فئات أو أشخاص دون العامة، نظراً لعجزهم عن الاتصال بالعقل الفعال، وحتى الذين اتصلوا نجد أن موقعهم من السعادة سلبي، وذلك لأنهم منفعلين منتظرين فيضه، وغير مبادرين لصناعة سعادتهم الخاصة.

وسياتي ابن رشد فيما بعد ليؤكد على دور الحكيم، فهو لا يستطيع العيش في وسط غير فاضل، وسترکز فلسفته على الإصلاح، وإعادة التأسيس، وهو لا يُفضل عرفانية التفرد والخلوة والانعزال عن الناس، وإذا كان هناك انعزال فهو تنجي إيجابي موضوعه الشهوات والملذات المادية، بهدف نشر العلم والمعرفة، والتمسك بالدين والذي يعتبر طوق نجاة.

قائمة المراجع:

- 1- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، ج 5، دار صادر، بيروت، (د س).
- 2- أبو نصر محمد الفارابي: السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تق: فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط1، 1964.
- 3- أبو نصر الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، د وتح: حسن مجيد العبيدي، دار الأمان، لبنان، ط 1، 2014م.
- 4- أبو نصر الفارابي: رسالة التنبيه على سبيل السعادة، تح: د سبحان خليفات، الجامعة الأردنية، ط 1، عمان، 1987.
- 5- أبو نصر الفارابي: فصول منتزعة، تح: فوزي متري نجار، المكتبة الزاهرة، مطبعة العلامة الطباطبائي، إيران، ط 2، 1405هـ.
- 6- أبو نصر الفارابي: كتاب الملة ونصوص أخرى، تح: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ط 2، 1991م.
- 7- أبو نصر الفارابي: كتاب تحصيل السعادة، تق: علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط 1، 1995م.